النساء العالِمات في العصور الإسلامية المبكرة: حضور خفي وتأثير مستمر

طه زيدان احمد
taha.zidan.iq@gmail.com
ا.م.د. علي سلطان عباس
dralisultan@uokirkuk.edu.iq

الملخّص

يتناول هذا البحث حضور النساء العالِمات في العصور الإسلامية المبكرة، بوصفه ظاهرة علمية واجتماعية ظلّت فاعلة رغم خفوتها في السرد التاريخي الرسمي. يهدف البحث إلى الكشف عن طبيعة المشاركة النسائية في العلوم، ولا سيما في مجال الحديث والفقه، وإبراز أثرها في تكوين البنية المعرفية الإسلامية. يعتمد الباحث المنهج التاريخي التحليلي، مع توظيف مقاربة اجتماعية ثقافية لفهم الظروف التي أسهمت في تراجع الظهور العلني للعالمات، رغم استمرار تأثيرهن العلمي عبر التعليم والإجازة والنقل المعرفي.

وقد أظهرت الدراسة أنّ العصور الأولى من الإسلام شهدت حضورًا واسعًا للنساء في نقل الحديث وتعليم الفقه، من خلال شخصيات مثل عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة والشفاء بنت عبد الله، وأن هذا الحضور تراجع لاحقًا بفعل تحوّلات مؤسسية واجتماعية وثقافية، لا بفعل نصوص دينية. كما تبيّن أن تأثير العالمات استمر في الذاكرة التعليمية الإسلامية عبر سلاسل الإجازة والمجالس العلمية التي ضمّت نساءً ورجالًا على السواء. خلص البحث إلى ضرورة إعادة قراءة التاريخ العلمي الإسلامي من منظورٍ شامل يدمج إسهامات النساء في تطوّر المعرفة، بوصفهن جزءًا أصيلًا من التراث العلمي الإسلامي لا استثناءً فيه.

الكلمات المفتاحية: النساء العالمات، الإسلام المبكر، الحديث النبوي، التعليم الإسلامي، التاريخ الاجتماعي للعلم.

Abstract

This study explores the presence of women scholars in the early Islamic centuries as a significant yet often overlooked intellectual phenomenon. It aims to uncover the nature of women's participation in religious and scientific learning—particularly in the fields of ḥadīth transmission and jurisprudence—and to highlight

their lasting influence on the formation of Islamic scholarly tradition. The research employs a historical–analytical methodology, combined with a socio-cultural approach, to examine the factors that led to the gradual invisibility of female scholars in historical narratives despite their continued intellectual contribution through teaching, authorization (ijāza), and the transmission of knowledge.

The findings demonstrate that women played a prominent role in the formative centuries of Islam, exemplified by figures such as ʿĀisha bint Abī Bakr, Umm Salama, and al-Shifāʾ bint ʿAbdallāh. Their visible participation later diminished due to institutional and social transformations rather than any religious prohibition. Nevertheless, their scholarly influence endured through networks of learning and chains of transmission that included both men and women. The study concludes by calling for a re-reading of Islamic intellectual history that restores women's contributions as an integral and continuous part of the Islamic scholarly heritage.

Keywords: women scholars, early Islam, ḥadīth transmission, Islamic education, social history of knowledge.

المقدمة

شهدت العصور الإسلامية المبكرة نشوء حركة علمية واسعة أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية وتشكيل معالمها الفكرية والمعرفية، وكان للمرأة المسلمة حضور واضح في هذه الحركة منذ البدايات الأولى للدعوة. فقد شاركت النساء في مجالس العلم، ونقل الحديث، وتعليم الفقه، وأسهمن في تكوين الوعي الديني والاجتماعي داخل المجتمع الإسلامي الناشئ، الأمر الذي يعكس طبيعة البيئة العلمية التي قامت على مبدأ التكليف المشترك بين الرجل والمرأة في طلب العلم ونشره.

ورغم هذا الحضور الفاعل، فإن السرد التاريخي اللاحق غالبًا ما ركّز على النماذج الذكورية، مما أدى إلى خفوت ذكر العالمات في كتب التراجم والدراسات التاريخية، على الرغم من استمرار تأثيرهن في سلاسل الإسناد العلمي والتعليم الشرعي عبر القرون. ومن هنا تبرز الحاجة إلى إعادة قراءة التاريخ العلمي الإسلامي قراءة تحليلية تستكشف أدوار النساء العالمات، وتكشف عن طبيعة مشاركتهن في نقل المعرفة وبناء المؤسسات التعليمية الأولى. ينطلق هذا البحث من محاولة إبراز نماذج مبكرة للمرأة العالمة في العهد النبوي وما تلاه، من خلال دراسة أدوارهن العلمية والاجتماعية، وتحليل العوامل التي أسهمت في ظهورهن في بعض الفترات وغيابهن في أخرى. ويعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي،

مستندًا إلى المصادر التراثية والدراسات الحديثة، بهدف تقديم رؤية متوازنة تعيد إدماج المرأة العالمة في سياقها الحضاري الصحيح، بوصفها عنصرًا فاعلًا في مسيرة العلم الإسلامي، لا مجرد حالة استثنائية في تاريخه

إشكالية البحث

تتمثّل إشكالية هذا البحث في التباين الواضح بين الحضور العلمي الفعلي للنساء في العصور الإسلامية المبكرة وبين محدودية تمثيلهن في السرد التاريخي اللاحق. فالمصادر التراثية تشير إلى مشاركة النساء في نقل الحديث وتعليم الفقه والمشورة العلمية، إلا أن كتب التراجم والدراسات التاريخية ركّزت بدرجة أكبر على الأعلام الذكور، مما أدى إلى تكوّن صورة غير مكتملة عن دور المرأة في بناء المعرفة الإسلامية.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في إبراز الدور العلمي للنساء العالمات في العصور الإسلامية المبكرة وإعادة قراءة التاريخ العلمي من منظورٍ أكثر توازنًا وشمولًا. كما يسهم في تصحيح الصورة النمطية حول محدودية مشاركة المرأة في بناء المعرفة الإسلامية، ويعزّز الوعي الأكاديمي بأثرها في نقل الحديث وتعليم الفقه وتشكيل الحياة العلمية في المجتمع الإسلامي الأول.

أهداف البحث

١. إبراز دور النساء العالمات في العصور الإسلامية المبكرة ومساهماتهن في نقل الحديث وتعليم الفقه وبناء المعرفة الدينية.
٢. تحليل طبيعة الأدوار العلمية والاجتماعية التي أدّتها المرأة في المجتمع النبوي والعصور الأولى للإسلام.
٣. الكشف عن العوامل التاريخية والاجتماعية التي أسهمت في خفوت حضور العالمات في السرد التاريخي اللاحق.
٤. الإسهام في إعادة قراءة التراث العلمي الإسلامي بمنظورٍ يبرز التوازن في مشاركة الرجل والمرأة في مسيرة العلم

الفصل الأول: الإطار النظري والمنهجي

1.1 مفهوم العِلم ودور المرأة في السياق الإسلامي المبكر

يُعدّ التعليم فريضة عينية في الإسلام، إذ تقوم العقيدة على العلم، ولا يمكن أداء العبادات والشعائر على الوجه الصحيح دون معرفةٍ بأحكام الشريعة. وبما أنّ المرأة مكلّفة بفرائض الدين وشرائعه كما الرجل، فقد وجب عليها أن تتعلّم ما تحتاج إليه في أمور دينها وعباداتها. وقد أكّد

الإسلام هذا الحق حين جعل طلب العلم فريضة على كل مسلمٍ ومسلمة[١].

إنّ تعليم المرأة لا يقلّ شأنًا عن تعليم الرجل، لأنّ جهلها بأحكام الدين والحلال والحرام لا يضرّها وحدها، بل يمتدّ أثره إلى الأسرة والمجتمع بأسره. فالمرأة هي المربّية الأولى، والطفل يتلقّى منها دروس الحياة الأولى، فإن كانت جاهلة نشأ جاهلًا، وإن كانت عالمةً واعيةً غرست في أبنائها حبّ العلم والفضيلة. وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [٣]، وهي نصوص تشمل الرجال والنساء معًا. كما جاء في الحديث الشريف: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» .[٤]

٢,١ المرأة في مجالس العلم ونقل الحديث

انعكس هذا الفهم على سلوك النساء في صدر الإسلام، فحرصن على حضور مجالس العلم وسؤال النبي ﷺ. ومن الشواهد ما رواه أبو سعيد الخدري أن امرأةً قالت: «يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا يومًا» فخصّص لهن يومًا للتعليم[٥]. وتدل هذه الحادثة على وعي المرأة بحقها في التعلم، ومشاركتها المباشرة في تلقي العلم الشرعي. ويمكن النظر إلى هذا الموقف بوصفه دلالة واضحة على طبيعة البيئة التعليمية في المجتمع الإسلامي المبكر، إذ لم يكن طلب العلم مقصورًا على فئة دون أخرى، بل كان مجالًا مفتوحًا لكل من امتلك الرغبة في التعلّم والسؤال. فقد أسهمت مشاركة النساء في مجالس العلم في تكوين وعيٍ ديني متوازن قائم على الفهم المباشر للنصوص الشرعية، مما مكّنهن من أداء أدوار تعليمية داخل أسرهن ومجتمعاتهن. كما أن تخصيص وقتٍ للتعليم النسوي يعكس إدراكًا مبكرًا لأهمية مراعاة الخصوصية الاجتماعية مع الحفاظ على مبدأ المساواة في التعلّم، وهو ما أسّس لاحقًا لظهور مجالس علمية نسائية أسهمت في نقل الحديث وتفسير الأحكام الشرعية عبر الأجيال.

3.1 نماذج مبكرة للمرأة العالمة

1.3.1 السيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

نُقل جانب كبير من أحكام الشريعة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي بلغت منزلة رفيعة في علوم الفقه والحديث واللغة. يقول عروة بن الزبير: «ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة».[٦] كما عدّها السيوطي وابن القيم من كبار المفتين في الإسلام، مما يدل على مكانتها العلمية بين الصحابة[٧]. وتُظهر سيرة السيدة عائشة رضي الله عنها أن مكانتها العلمية لم تقتصر على كثرة الرواية فحسب، بل امتدّت إلى الفهم العميق للنصوص واستنباط الأحكام

[١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم.
[٢] سورة العلق: الآية ١
[٣] سورة طه: الآية ١١٤
[٤] مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم
[٥] البخاري، كتاب العلم
[٦] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨
[٧] السيوطي، تدريب الراوي؛ ابن القيم، إعلام الموقعين .

منها، إذ كانت تناقش الروايات وتصحّح بعض ما يُفهم على غير وجهه، مما يعكس حضورها النقدي في المجال العلمي. وقد أسهمت طبيعة نشأتها في بيت النبوة في تكوين شخصية علمية واعية جمعت بين الدقة في النقل وسعة الإدراك، فكان الصحابة والتابعون يرجعون إليها في المسائل الدقيقة التي تتعلق بفقه العبادات وشؤون الأسرة والحياة اليومية. ومن خلال مجالسها التعليمية، ترسّخ دور المرأة العالمة بوصفها مصدرًا للمعرفة ومرجعًا علميًا يُستفاد منه، الأمر الذي أسهم في ترسيخ تقليد علمي نسوي قائم على التعليم والإرشاد ونقل الخبرة الدينية إلى الأجيال اللاحقة.

2.3.1 الشفاء بنت عبد الله العدوية

تُعدّ الشفاء بنت عبد الله نموذجًا للمرأة المتعلّمة، إذ كانت من أوائل من عرفن الكتابة، وأمرها النبي ﷺ أن تُعلّم حفصة الكتابة[٨]، مما يعكس دور المرأة في التعليم ونقل المعرفة داخل المجتمع الإسلامي. وقد مثّلت الشفاء بنت عبد الله العدوية صورةً مبكرة للمرأة التي جمعت بين العلم والعمل، إذ لم يقتصر دورها على تعلّم الكتابة فحسب، بل تجاوز ذلك إلى تعليم غيرها والمشاركة في بناء الوعي المعرفي داخل المجتمع المدني. ويشير حضورها التعليمي إلى أن مهارة الكتابة كانت تُعدّ وسيلة أساسية لنقل المعرفة وتنظيم شؤون الحياة الاجتماعية، الأمر الذي منح المرأة مساحة فاعلة في المجال الثقافي والتربوي. كما يعكس نشاطها التعليمي طبيعة المجتمع الإسلامي الأول الذي أتاح للمرأة المتعلّمة أن تؤدي دورًا إصلاحيًا داخل بيئتها، فكانت التعليمات التي نقلتها والخبرات التي شاركتها جزءًا من عملية ترسيخ القيم العلمية وتعزيز التواصل المعرفي بين أفراد المجتمع.

4.1 أدوار المرأة العلمية والاجتماعية في العهد النبوي

1.4.1 الدور الثقافي واللغوي

اسهمت النساء في اللغة والأدب والشعر، وكانت عائشة رضي الله عنها من أفصح نساء عصرها وأكثرهن اطلاعًا على الشعر. وقد ارتبط الحضور الثقافي للمرأة في العهد النبوي بطبيعة البيئة العربية التي أولت عناية خاصة للفصاحة والبيان، فكانت النساء يشاركن في نقل الشعر وحفظه واستعماله في توضيح المعاني اللغوية والتعبير عن المواقف الاجتماعية. ولم يكن هذا الدور مقتصرًا على الجانب الأدبي فحسب، بل أسهم في ترسيخ الفهم الصحيح للنصوص الدينية، إذ كانت المعرفة باللغة العربية أداةً أساسية في تفسير القرآن وفهم الحديث. وقد انعكس ذلك على المجالس العلمية التي شاركت فيها النساء، حيث امتزج الحسّ الأدبي بالوعي الديني، فظهر نموذج المرأة المثقفة التي تجمع بين البلاغة والمعرفة الشرعية، وتسهم في تشكيل الذوق اللغوي والثقافي للمجتمع الإسلامي المبكر.

[٨] ابن سعد، الطبقات الكبرى

2.4.1 الدور الدعوي والسياسي

برزت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها كأول من آمن بالنبي ﷺ وسانده بمالها ونفسها[٩]، كما عُرفت أم سلمة برأيها الحكيم يوم الحديبية. وقد يعكس هذا الحضور الدعوي والسياسي وعي المرأة المسلمة المبكر بطبيعة المرحلة التي مرّت بها الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن دورها مقتصرًا على الدعم العاطفي، بل تجاوز ذلك إلى المشاركة الفاعلة في تثبيت الرسالة وتوجيه مسار الأحداث. فقد أسهمت خديجة رضي الله عنها بثباتها وإيمانها في توفير بيئة آمنة للنبي ﷺ في بداية الدعوة، بينما مثّلت مشورة أم سلمة رضي الله عنها يوم الحديبية نموذجًا للنضج الفكري والقدرة على قراءة المواقف بحكمة ورويّة. وتدل هذه النماذج على أن المرأة في المجتمع النبوي كانت عنصرًا مؤثرًا في المجال العام، تشارك بالرأي والموقف، وتسهم في تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي ضمن إطار القيم الإسلامية.

3.4.1 الدور الطبي والتمريضي

شاركت النساء في مداواة الجرحى في الغزوات، ومنهن رفيدة الأنصارية وأم عطية التي قالت: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات...»[10] . وقد عكست مشاركة النساء في مداواة الجرحى دورًا إنسانيًا مهمًا في المجتمع الإسلامي المبكر، إذ أسهمن في تقديم الرعاية الصحية وتنظيم أعمال الإسعاف أثناء الغزوات، مما يدل على وعيٍ عملي بدور المرأة في خدمة المجتمع وتعزيز روح التعاون والتكافل بين أفراده.

4.4.1 الدور الاقتصادي (التجارة والزراعة والحِرف)

كان للمرأة حضور اقتصادي واضح، ومن أبرز النماذج خديجة بنت خويلد في التجارة، وأسماء بنت أبي بكر في العمل الزراعي [١١] إضافةً إلى ممارسة الحِرف اليدوية مثل النسج والدباغة. ويُظهر الحضور الاقتصادي للمرأة قدرتها على المشاركة في الإنتاج إلى جانب مسؤولياتها الاجتماعية، إذ أسهمت في التجارة والعمل الزراعي والحِرف اليدوية، مما دعم الاستقرار الأسري وعكس مفهوم الكسب الحلال والمشاركة الفاعلة في بناء المجتمع. يعد حضور الصحابيات العالمات في العهد النبوي من أبرز مظاهر المشاركة العلمية النسوية في التاريخ الإسلامي، إذ أسهمن في نقل الحديث، وتعليم الفقه، وتشكيل الوعي الديني للمجتمع الإسلامي الناشئ. وقد مثّلت شخصيات مثل عائشة بنت أبي بكر، وأم سلمة بنت أبي أمية، والشفاء بنت عبد الله نماذج متكاملة للمرأة العالمة التي جمعت بين العلم والعمل والتأثير الاجتماعي.

[٩] ابن هشام، السيرة النبوية
[١٠] مسلم، كتاب الجهاد
[١١] البخاري، كتاب المغازي

الفصل الثاني: نماذج من الصحابيات العالمات

يعد حضور الصحابيات العالمات في العهد النبوي من أبرز مظاهر المشاركة العلمية النسوية في التاريخ الإسلامي، إذ أسهمن في نقل الحديث، وتعليم الفقه، وتشكيل الوعي الديني للمجتمع الإسلامي الناشئ. وقد مثّلت شخصيات مثل عائشة بنت أبي بكر، وأم سلمة بنت أبي أمية، والشفاء بنت عبد الله نماذج متكاملة للمرأة العالمة التي جمعت بين العلم والعمل والتأثير الاجتماعي.

١,٢ السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها

١,١,٢ مكانتها العلمية

تُعدّ السيدة عائشة رضي الله عنها من أعظم النساء علمًا وفقهًا في تاريخ الإسلام، فقد جمعت بين علوم الحديث والفقه واللغة والتاريخ، وكانت مرجعًا علميًا لكبار الصحابة والتابعين. نشأت في بيت النبوة، مما أتاح لها الاطلاع المباشر على حياة النبي ﷺ وأحكامه، فبلغت رواياتها ما يقارب (٢٢١٠) حديثًا [١٢].

وقد قال عنها عطاء بن أبي رباح: «كانت عائشة من أفقه الناس وأعلم الناس»[١٣]، كما شهد لها عروة بن الزبير بسعة علمها في الفقه والطب والشعر.

2.1.2 دورها التعليمي ومدرستها العلمية

بعد وفاة النبي ﷺ، تحوّل بيتها إلى مدرسة علمية يقصدها الصحابة والتابعون للاستفتاء والتعلّم. وكانت تجلس في مسجد النبي ﷺ لتعليم الرجال والنساء، مما جعلها ركيزة أساسية في نقل المعرفة الإسلامية. ويرى الباحثون المعاصرون أنها أسهمت في تأسيس منهج نقدي في الحديث والفقه، حيث لم تكتفِ بالرواية بل مارست الفهم والاستنباط العلمي[١٤].وقد أسهم هذا الدور التعليمي في ترسيخ مكانة السيدة عائشة رضي الله عنها بوصفها مرجعًا علميًا يعتمد عليه طلاب العلم في فهم الأحكام وتفسير النصوص، إذ جمعت بين نقل الحديث وبيان معانيه بأسلوب واضح ومنهجي. كما أسهمت مجالسها العلمية في تخريج عدد من التابعين الذين حملوا علمها إلى الأمصار، فامتد تأثيرها التعليمي إلى أجيال لاحقة، مما يعكس أهمية الدور النسوي في استمرار الحركة العلمية في صدر الإسلام.

٣,١,٢ مجالات علمها المتعددة

لم يقتصر علمها على الحديث والفقه، بل امتد إلى الشعر واللغة والطب، وقد قالت: (كنت أمرض فيداويني رسول الله ﷺ فأحفظ ما أسمع من

[١٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص١٣٥.
[١٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٦١
[١٤] Sayeed, Women and the Transmission…, p.47

الأدوية)، مما يدل على تنوّع معارفها وثقافتها الواسعة[١٥].ويعكس هذا التنوع المعرفي شخصيةً علميةً موسوعية جمعت بين علوم الدين ومعارف الحياة اليومية، إذ أسهم اطلاعها على الشعر واللغة في فهم النصوص الشرعية بدقة، بينما أتاح لها احتكاكها المباشر ببيت النبوة اكتساب خبراتٍ في جوانب الطب والتداوي. وقد جعل هذا الاتساع في المعرفة من مجالسها العلمية بيئةً ثرية تجمع بين الفقه والثقافة العامة، مما عزّز مكانتها بوصفها نموذجًا متكاملًا للمرأة العالمة في المجتمع الإسلامي المبكر.

2.2 أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها

١,٢,٢ مكانتها في الرواية والفقه

تُعدّ أم سلمة من كبار راويات الحديث، إذ روت ما يزيد على ثلاثمائة حديث في الطهارة والعدة والزينة وشؤون الأسرة[١٦] . وقد تميّز منهجها العلمي بالدقة في نقل الوقائع النسوية، مما جعلها مرجعًا مهمًا في الفقه العملي. ويظهر من مرويات أم سلمة رضي الله عنها اهتمامها بتفاصيل الأحكام التي تمسّ حياة النساء اليومية، الأمر الذي أسهم في توضيح كثير من المسائل الفقهية العملية، وجعل رواياتها مصدرًا مهمًا في أبواب الطهارة والعدة والزينة، بما يعكس دقة منهجها في نقل السنّة وفهمها.

2.2.2 دورها الاستشاري والسياسي

برزت حكمتها يوم الحديبية عندما أشارت على النبي ﷺ أن يبدأ بالنحر والحلق ليقتدي به الصحابة، فكان رأيها سببًا في حل الأزمة[١٧] . ويكشف هذا الحدث عن دور المرأة العالمة في صناعة القرار داخل المجتمع الإسلامي. ويُبرز موقفها يوم الحديبية جانبًا من حضور المرأة في المجال العام، حيث قدّمت رأيًا قائمًا على الحكمة وحسن تقدير الموقف، مما يدل على أن المشورة النسوية كانت جزءًا من منظومة اتخاذ القرار في المجتمع النبوي ضمن إطار من الثقة والتقدير.

٣,٢,٢ نشاطها التعليمي

كان بيتها مدرسةً علمية يقصدها طلاب العلم، حيث جمعت بين التعليم والإفتاء ونقل السنّة، وأسهمت في تكوين سلاسل الإسناد العلمي عبر الأجيال. وقد أسهم نشاطها التعليمي في نقل المعرفة إلى عدد من التابعين والنساء المتعلّمات، إذ كانت مجالسها تجمع بين الرواية والشرح، مما ساعد على ترسيخ تقاليد التعليم المنزلي الذي كان له أثر واضح في استمرار سلاسل الإسناد العلمي عبر الأجيال.

٣,٢ الشفاء بنت عبد الله العدوية

[١٥] رواه مسروق عن عائشة – مصادر التراجم

[١٦] مسلم، صحيح مسلم، أبواب الطهارة والعدة

[١٧] ابن هشام، السيرة النبوية .

١,٣,٢ دورها في التعليم والكتابة

كانت الشفاء من أوائل النساء معرفةً بالقراءة والكتابة في مكة، وأمرها النبي ﷺ أن تعلّم حفصة بنت عمر الكتابة، مما يدل على إقرار الإسلام لدور المرأة التعليمي[١٨], وقد أسهمت معرفة الشفاء بنت عبد الله بالكتابة في تعزيز حضور المرأة في المجال التعليمي داخل المجتمع المدني، إذ مثّلت نموذجًا للمرأة المتعلّمة التي تنقل المعرفة لغيرها، مما يدل على أهمية التعليم بوصفه وسيلة لبناء الوعي الثقافي والديني في العهد النبوي.

2.3.2خبرتها في الرقية والتداوي

اشتهرت الشفاء بمعالجة بعض الأمراض الجلدية بالرقية المشروعة، وقد أقرّ النبي ﷺ عملها وأمرها بتعليم تلك الرقية، مما يعكس الجمع بين المعرفة الدينية والخبرة الطبية الشعبية. ويكشف إقرار النبي ﷺ لعملها في الرقية عن تقدير الخبرات النافعة التي تمتلكها النساء، حيث اجتمع في شخصيتها الجانب الديني والجانب العملي، فكانت مثالًا على توظيف المعرفة لخدمة المجتمع ضمن ضوابط الشرع.

٣,٣,٢ حضورها في المجال العام

تذكر كتب التراجم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستشيرها في بعض شؤون السوق، وهو دليل على الثقة بعلمها ورأيها، وعلى مشاركة المرأة في المجال العام متى ما امتلكت الكفاءة العلمية[١٩] , كما يعكس حضورها في بعض شؤون السوق مكانة المرأة ذات الكفاءة في المجتمع الإسلامي المبكر، إذ أُتيحت لها مساحة للمشاركة بالرأي والمشورة، وهو ما يدل على أن معيار المشاركة كان قائمًا على العلم والخبرة لا على النوع الاجتماعي وحده.

الفصل الثالث: بين الظهور والمحو

١,٣ تحوّل المؤسسة العلمية واحتكار المناصب الرسمية

شهدت الحضارة الإسلامية مع اتساع الدولة وتطوّر البنية المؤسسية انتقال العلم من مجالٍ مفتوح إلى إطارٍ رسمي منظّم، تمثّل في القضاء والإفتاء والتدريس داخل المدارس النظامية. وقد أدّى هذا التحوّل إلى ارتباط العلم بالسلطة والوقف والمؤسسات الرسمية، الأمر الذي قلّل من حضور النساء في المجال العام رغم استمرار مشاركتهن العلمية في البيوت والزوايا التعليمية. يرى محمد أكرم الندوي أن تحوّل العلم إلى مهنةٍ رسميةٍ

[١٨] ابن سعد، الطبقات الكبرى.

[١٩] ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب

مرتبطةٍ بالدولة أسهم في إقصاء النساء تدريجيًا عن مؤسسات التوثيق والإجازة، لا عن طلب العلم ذاته[٢٠] . ومع مركزية هذه المؤسسات في المدن الكبرى، أصبح الوصول إليها مرتبطًا بشروط اجتماعية ومكانية لم تكن متاحة دائمًا للنساء.

٢,٣ الأعراف الاجتماعية والقيود على التنقّل

مع مرور الزمن نشأت أعراف اجتماعية تميل إلى تقليص حضور المرأة في الفضاء العام، مما انعكس على مشاركتها في حلقات العلم المفتوحة. ورغم أن هذه الأعراف لم تكن قائمة على نصوص دينية صريحة، فإنها اكتسبت تأويلات اجتماعية جعلت حضور المرأة في المجالس العلمية أقل ظهورًا.

وقد أشار ابن خلدون إلى أن العلوم تحوّلت إلى صناعة تحتاج إلى معلمين ومواضع وموارد مالية [٢١]، وهو ما جعل المشاركة العلمية مرتبطة بالرحلة والسفر، وهي شروط صعبة على كثير من النساء بسبب القيود الاجتماعية. وبذلك تراجع حضور العالمات في السجلات الرسمية، رغم استمرار التعليم داخل البيوت والمجالس الخاصة.

٣,٣ كتابة التاريخ بعيون ذكورية

يُعدّ التحيّز في التدوين التاريخي أحد أبرز أسباب خفوت الحضور النسائي في المصادر التراثية. فقد كان معظم المؤرخين وكتّاب التراجم رجالًا ركّزوا على العلماء الذين تولّوا مناصب رسمية أو ظهروا في المجالس العامة، مما أدى إلى تقليل مساحة التوثيق للعالمات. فعلى سبيل المثال، تضم كتب التراجم الكبرى عددًا كبيرًا من تراجم الرجال مقابل عدد محدود من النساء، رغم أن الدراسات الحديثة أحصت آلاف المحدّثات عبر القرون[٢٢] . ويشير جوناثان بيركي إلى أن إعادة إنتاج التاريخ من منظور ذكوري أدّت إلى تغييب الفاعل النسائي من الذاكرة المؤسسية[٢٣]. إن قراءة هذه المصادر قراءة نقدية معاصرة لا تعني رفضها، بل تهدف إلى إعادة التوازن في فهم التاريخ العلمي الإسلامي واستعادة أدوار النساء ضمن سياقها الحقيقي.

٤,٣ العالمات كحلقة وصل في نقل الحديث والفقه

منذ البدايات الأولى لتكوّن العلوم الإسلامية، أدّت النساء دورًا أساسيًا في منظومة الإسناد العلمي، حيث حفظن الحديث وعلّمن الفقه، وأسهمن في نقل المعرفة عبر الأجيال. فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها آلاف الأحاديث، كما نقلت أم سلمة أحكامًا دقيقة في قضايا الطهارة والعدة والزينة.

ويؤكد الإمام الذهبي أن النساء في علم الحديث عُرفن بالصدق والضبط، ولم يُعرف عنهن الكذب

[٢٠] الندوي، المحدِّثات: العالمات في الإسلام، ج١، ص٢٧ .
[٢١] ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٤٣٢ .
[٢٢] الندوي، المحدِّثات، ج١، ص٢٥ .
[٢٣] Berkey, Women and Islamic Education…, p.42

أو الوضع[٢٤]، مما يعكس مكانتهن العلمية وثقة العلماء برواياتهن. وفي العصور اللاحقة برزت عالمات مثل كريمة المروزية وزينب بنت الكمال، اللواتي أصبحن حلقة وصلٍ رئيسة في سلاسل الإسناد، وأجازن عددًا كبيرًا من العلماء، وهو ما يدل على استمرار الدور النسوي في حفظ العلوم الشرعية. وترى أسماء سيّد أن النساء لم يكنّ مجرد ناقلات للعلم، بل وسطاء فاعلين في تشكيل المعرفة الإسلامية وتوثيقها[٢٥]. يتّضح أن خفوت الحضور النسائي في السرد التاريخي لم يكن نتيجة غياب الفعل العلمي للنساء، بل بسبب تحولات مؤسسية واجتماعية وثقافية أعادت صياغة فضاء المعرفة. فقد تحوّل العلم إلى مؤسسة رسمية ذات هرمية ذكورية، وترافقت معه أعراف حدّت من حركة المرأة، إلى جانب تدوين تاريخي ركّز على الفاعلين الذكور. وعليه، فإن إعادة قراءة التاريخ العلمي الإسلامي من منظورٍ شامل تُعدّ خطوة ضرورية لاستعادة التوازن المعرفي، وإبراز إسهام المرأة بوصفها عنصرًا أصيلًا في بناء الحضارة الإسلامية.

النتائج

بعد دراسة حضور النساء العالمات في العصور الإسلامية المبكرة وتحليل نماذجهن العلمية والاجتماعية، توصّل البحث إلى مجموعة من النتائج الرئيسة:

١. أثبتت الدراسة أن المرأة المسلمة كانت عنصرًا فاعلًا في الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجري، وأسهمت بوضوح في نقل الحديث والفقه والتعليم، ولم يكن دورها هامشيًا كما توحي بعض السرديات التاريخية.

٢. كشفت النماذج المدروسة — مثل عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة والشفاء بنت عبد الله — عن مستوى علمي رفيع في الرواية والإفتاء والتعليم، مما يؤكد أن العالمات كنّ جزءًا أصيلًا من البنية المعرفية الإسلامية.

٣. بيّن التحليل التاريخي أن خفوت الحضور النسائي في المصادر اللاحقة لم يكن نتيجة غياب الفعل العلمي، بل بسبب تحولات مؤسسية واجتماعية رافقت تطور المدارس النظامية واحتكار المناصب العلمية الرسمية.

٤. أظهرت الدراسة أن النساء العالمات لعبن دور حلقة الوصل في سلاسل الإسناد العلمي، وأسهمن في استمرار نقل المعرفة عبر التعليم والإجازة، وهو ما حافظ على استمرارية التراث الحديثي والفقهي.

[٢٤] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٣٣٩.

[٢٥] Sayeed, Women and the Transmission..., p.97

٥. أكدت النتائج أن إعادة قراءة التاريخ العلمي الإسلامي من منظور شامل يسهم في تصحيح صورة المرأة المسلمة وإبراز دورها الحقيقي في بناء الحضارة الإسلامية.

التوصيات

استنادًا إلى نتائج البحث، يوصي الباحث بما يأتي:

١. إعادة فحص كتب التراجم والطبقات بمنهج نقدي حديث يسلّط الضوء على إسهامات النساء العالمات ويعيد إدماجهن في السرد العلمي.
٢. تشجيع الدراسات الأكاديمية المتخصصة في التراث العلمي النسوي الإسلامي، خصوصًا في مجالات الحديث والفقه والتاريخ الاجتماعي للعلم.
٣. إدراج سير العالمات والمحدّثات ضمن المناهج الشرعية والتعليمية؛ لتعزيز الوعي التاريخي المتوازن لدى الطلبة والباحثين.
٤. دعم المشاريع العلمية التي تهدف إلى جمع وتحقيق مؤلفات النساء العالمات ونشرها بأسلوب علمي معاصر.
٥. تطوير برامج تعليمية وبحثية تُعيد إحياء تقليد الإجازة العلمية النسائية وتوسّع مشاركة المرأة في الدراسات الإسلامية الحديثة.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم والسنة النبوية

• القرآن الكريم.
• البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. بيروت: دار ابن كثير.
• مسلم، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. بيروت: دار الفكر.
• الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي. القاهرة: دار الحديث.
• أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود. بيروت: دار الفكر.
• ابن ماجة، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجة. بيروت: دار الكتب العلمية.
• أحمد بن حنبل. المسند. بيروت: دار صادر.

ثانيًا: المصادر التراثية

• ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية. بيروت: دار الفكر.
• ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.

• الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء. بيروت: مؤسسة الرسالة.
• ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. القاهرة.
• ابن عبد البر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. بيروت: دار الجيل.
• ابن خلدون. المقدمة. بيروت: دار الفكر.
• النووي. شرح صحيح مسلم. بيروت: دار الفكر.

ثالثًا: الدراسات الحديثة

• الندوي، محمد أكرم. المحدِّثات: العالمات في الإسلام. أكسفورد، ٢٠٠٧.
• Sayeed, A. Women and the Transmission of Religious Knowledge in Islam. Cambridge University Press, 2013.
• Berkey, J. Women and Islamic Education in the Mamluk Period. Princeton University Press, 1999.
• المرنيسي، فاطمة. النساء المنسيات في الإسلام. الدار البيضاء.
• عبد الغني محمد، عفاف. "المرأة ودورها في الحياة العلمية في صدر الإسلام". مجلة جامعة أم القرى